

## العلوم الاجتماعية في العالم العربي: الرؤى و البدائل

د.فاطمة المومني

جامعة 9 أبريل-تونس

البريد الإلكتروني: fatma.moumni@yahoo.fr

### ملخص:

تعتبر مسألة العلوم الاجتماعية من بين المسائل التي شكلت لها فلسفيا، لأنها تتميز بكونها تحول جذري على كافة المستويات في المعرفة، في فهم الإنسان، في تصور الطبيعة، وفي معنى التاريخ. إن معضلة العلوم الاجتماعية بالنظر إليها كظاهرة عقلية تحتاج إلى تمثـل واع إزاء أفق جديد يبحث عن ظهور نظرية نقدية انتهى بها مفكرو وفلاسفة علم الاجتماع إلى نتيجة تقضي للانسحاب من الدعوة إلى إنقاذ الفرد من الانحطاط من خلال مشروع اجتماعي، هذا المشروع يحاول من خلاله استصلاح العقل وإنشاء معقولية تواصلية لا تضاد العقل بتمامه بل تتكرر تسلطه فقط.

### Social sciences in the Arab world: visions and Substitutes

#### Abstract :

The issue of Social Sciences formed busier philosophically, because it is characterized by being a radical transformation at all levels of knowledge, in the human understanding, in the perception of nature, and the meaning of history. The dilemma of Social Sciences looking at it as a phenomenon mentality you need to represent conscious about the new horizon looking for the emergence of monetary theory ended thinkers and philosophers of sociology to result lead to the withdrawal of the invitation to the rescue of the individual decay through social project, this project tries through reclamation mind and create reasonableness of communication does not run counter to the mind, but deny wielded only.

## مقدمة:

إن الواقع العربي هو واقع مغلق لمجتمع بلا نقد وإنسان فرد لا يعي إلا ما هو مباشر وواقعي، عالم عربي قد اغتيل فيه العقل النقدي وطغت فيه حالة اللافاعلية. لكن العزم النظري الأهم الذي يحرك سؤالنا الآن هو أن نقف على حروف الإشكالي التالي: ما حلتنا اليوم أن نسأل عن أزمة التنظير التي يشكو منها علم الاجتماع في عالمنا العربي نتيجة غياب إستراتيجية واضحة لعلماء الاجتماع العرب. هو سؤال عن المعنى، الرهان والأزمة.

"العلوم الاجتماعية"، في شكلها العام هي مجتمع، ثقافة، علوم إنسانية أما وسائلها فهي تجريبية، نظرية التمثيل، منهج علمي، فرضية، تحليل، إحصاء. كما تختلف مجالاتها من علوم سياسية وعلوم طبيعية وعلم نفس و أنثروبولوجيا (...). ففي أعم مفاهيمها العلوم الاجتماعية هي دراسة مختلف الظواهر للواقع الإنساني بمعنى دراسة موضوعية أي مستقلة عن الذات. وفي هذا السياق يعرف العلامة ابن خلدون علم الاجتماع بأنه: « دراسة وصفية تفسيرية مقارنة للمجتمعات الإنسانية، كما تبدو في الزمان والمكان؛ للتوصل إلى قوانين التطور، التي تخضع لها هذه المجتمعات الإنسانية في تقدمها وتغيرها»<sup>1</sup>.

كما أعلن في "المقدمة" بأنه قد صاغ "علما مستقلا"، إذ يقول: «وكان هذا علم مستقلاً بنفسه، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل؛ وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعياً كان أو عقلياً»<sup>2</sup>. لذلك كان العلامة ابن خلدون نقطة تحول في كتابة التاريخ الإنساني، وفي تأسيسه لعلم الاجتماع الذي رج به الفكر الإنساني. إذ وضع خطة جديدة وآراء جديدة، بل وضع قوانين جديدة يمكن تطبيقها، وتتسحب على كل المجتمعات البشرية، انطلاقاً من أن الإنسان لا يعيش إلا في مجتمع، وإذا عاش في مجتمع؛ فلا بد أن يعيش مع شعب، وإذا عاش مع شعب لا بد أن يعيش على أرض، ولكي تظل العلاقة قائمة بين هؤلاء الناس، أو القبائل، أو الشعب، أو هذه المجموعة البشرية؛ لا بد من أن ينظمها حاكم. إن غاية علماء الاجتماع هو أن يقوم منظور عملهم منذ بدايته على يد رواده كابن خلدون، أوقيست كونت وغيرهم وهو حرص مفاده أن الحاضر نتيجة للماضي ومقدمة للمستقبل، هو سعى إلى بلورة نظرية للمجتمع أكثر تجريد.

يعد عصر التنوير هو عصر "الكوجيتو" السياسي، هو « الأنا أفعل » التي يتحول معها الإنسان من "قرد" إلى "مواطن"، هذا هو "الكوجيتو" السياسي الذي حققه الوعي الأوروبي في القرن الثامن عشر، والذي تغير بعده مسار العالم السياسي. ومن ثم يمثل هذا القرن مرحلة تحول في طريق الإنسانية نحو مفهوم واضح ومحدد للمواطنة والديمقراطية. هو عصر تحول من "أسطورة الدين" إلى "أسطورة العقل"، أو من "المقدس المسيحي" إلى "مقدس الحداثة". فكان فلاسفة التنوير يرغبون في إصلاح كل من المجتمع و السياسة إلى الدين إلى الأخلاق الاجتماعية... عن طريق العلم بحيث كان القرن الثامن عشر هو قرن التنوير، قرن أنير فيه العقل الغربي الذي كان له عمل واضح من خلال كتابات الفلاسفة وتصوراتهم

## الفكرية.

في الحقيقة فكر العرب في التنوير كثورة قائمة أساسا على العقل، عقل لا يعرف بأنه مكسب بل بالعكس يقوم بتحطيم كل الأشكال التنظيمية الاجتماعية والسياسية في المقابل العمل على الإصلاح عن طريق تطوير العلم والتكنولوجيا. إن اندماج العرب في العالم التنويري يتطلب منهم الوعي والتحرر من العمى الإيديولوجي بهدف الاتفاق الجماعي بعيدا عن الانقسامات التي تهدد وحدتها.

إن العالم العربي لم يعرف إلا التنوير الفكري المهمش، فقد ظل مشروع، وبالتالي نرى أن العصر الذي مورست فيه نقد للذات العربية و أرادت أن توجد فيه نظاما من القيم والتوجهات التي تحاول أن تشد الإنسان إلى عصره و من ثمة الانتباه إلى حجم الهوة بين العالم العربي والعالم الأوروبي والذي استطاع بناء تجربته الإحداثية بشكل جعلها لم تبق أسيرة الشعارات السياسية أو الخطابات اليومية كما هو عندنا إذن إن الحراك الثقافي والسياسي الذي مارسوه المفكرون العرب في ذلك العصر وهو ما جعل بعض المفكرين يصفون تلك الفترة بأنها شهدت ظهور دعاة إصلاح أطلقوا أفكارا وكانت مقتصرة على فئة معينة بحيث ظلت أحلام تنتظر التحقق.

إن أكد مطلوباتنا هو أن نستوعب المناهج العلمية الغربية وربط ذلك بترائنا العربي، لكن أولا علينا أن نشخص كل السلبيات والمعوقات (التخلف...) لأنه لا يمكن ونحن نرغب بالتقدم أن نتغاضى عن تلك الرواسب التي استقرت في المجتمع العربي. لذلك في هذه المرحلة نحن بحاجة إلى أن نبني ذواتنا على أسس قوية يعني تحدث عقولنا لتحقيق التطور الفكري والاقتصادي والاجتماعي. يقول الطاهر الحداد: « ليس لنا إلا طريق واحد ألا وهو الاعتماد على النفس (...) ولا يكون اعتمادنا على أنفسنا إلا إذا عرفنا أننا من أمة عظيمة (...) يلزم أن نتقدم، يلزم أن نعيش كأمة لها حق في الحياة»<sup>3</sup>. وبالتالي فإن الأخذ بالموروث العربي هو أساس كل تقدم علمي وليس تقليد يقول المفكر علي حرب في كتابه الإنسان الأدنى/ أمراض الدين واعطال الحداثة: « العرب أمة تمارس الاستقالة من التفكير الحي والمثمر، بقدر ما يعتقد دعائها إن الماضيين قد كفونا مشقة التفكير والبحث، إذ عندهم نجد حلولاً لكل المشكلات التي يمكن أن نصادفها اليوم، وما علينا إلا أن نحذو حذوهم في الفكر والمسلك»<sup>4</sup>.

تستمد العلوم الاجتماعية دعائم استقلالها من خلال وجود نظري خاص بها ومنها تنتميز به ومجال اهتمام تخصص فيه. لكن ما نراه أن علم الاجتماع لازال يجتهد في توخي الدقة بخصوص تحديد مجال اهتمامه وفي بلورة بناءه النظري وإنشاء منهجية في البحث وهو حافظ على استقلاله كنظام فكري وعلم مستقل بذاته. ما نلاحظه إن علم الاجتماع يشترك مع بقية العلوم كعلم نفس و علم الاثنروبولوجيا و علم الاقتصاد وعلم السياسة وغيرها... في دراسة موضوع مشترك وهو ذلك "الأنا" ذلك "الإنسان". وهذا الإنسان حضوره في العالم وفي المجتمع يستلزم منه تكيفا اجتماعيا. لكن من مهام علم الاجتماع هي دراسة النشاط الاجتماعي والغاية تحقيق التكامل المعرفي حول الإنسان والمجتمع. لقد تهافت الباحثين في علم الاجتماع العرب على مناهج الغرب إذ وقعوا في التقليد و التبعية، وجعلوا تلك الدراسات التجريدية موضوع بحثهم كالمدرسة الدوركيهومية<sup>5</sup>. فقد اقتصر أعمال باحثين العرب في علم الاجتماع على النقل دون التمحيص والنقد والتأصيل دون أن يربطوا هذه النظريات بالأوضاع الاقتصادية

والاجتماعية والإيديولوجية. فلا يمكن إذن أن نفهم فكر إميل دوركهايم إلا في ضوء فكر أوقيست كونت الذي هو بدوره لن يفهم بمعزل عن صراع الأفكار و الايديولوجيات في زمنه بسان سيمون وغيرهم...من ثمة إن إتباع منهج الديالكتيك العلمي والتحليلات الاجتماعية التاريخية والنفسية هو البديل لتلك الدراسات العميقة التي لا تعمق فهمنا السوسيولوجي لأنها مثالية.

إن العالم العربي في حاجة إلى مسح اجتماعيا يدرس مؤسساته وتراثه و تقاليده وقيمه في تاريخها الماضي وفي صلتها بالأوضاع التي يعيشها الإنسان العربي في وقتنا الراهن. ومن شأن هذا المسح الاجتماعي أن يكشف العناصر السلبية والايجابية في هذه القيم ويحدد ما ينفع منها لمتطلبات حياته. إن النقد يمكن أن يتبلور من خلال ذات جماعية خاصة نقد يرتبط بالمجتمع إذ يفهم على أساس دعوى إلى التحرر، انه يفهم تحديدا ضمن مشروع يهدف إلى تغيير المجتمع: نقد يفرضي إلى تثبيت أسباب معاناة الأفراد فيما تنتج ثقافة ما من أدوات تسلط و الهيمنة الجديدة للدولة ومؤسساتها. فإلى متى يظل حرمان الإنسان العربي من العقل التنويري تحت اسم العقل المتسلط؟ وهل سنعيش عهدا مستنيرا؟ أم في واقعنا نسير نحو التنوير؟ لكن اتضح فشل هذا الاتجاه لذلك راهنو على الفرد كعنصر ناقد، غير أن آليات التقنية لا تسمح للفرد بالنقد إلا من منطلق احتوائه، وبالاختلاف إلا من زاوية تحركه داخل دائرة الهوية. بهذا شكل لم يعد التساؤل عن هامشية الفرد وعن إمكانية إنفاذه أساسيا بل أصبح الأمر الآن يرتكز من خلال إمكانيات إخضاع ما يشكل لا عقلانية النظام لقوانين العقل الإنساني. لكن مسيرة التنوير هذه لم تتمكن من مواصلة سيرها، وتعثرت وهي لا تزال في بداية الرحلة. فعرف التنوير في العالم العربي أزمة متعددة الأبعاد والمظاهر والنتائج، ولعل هذا ما جعل البعض يتساءلون عن السبب بالمقارنة بشعوب نهضت بعدنا وتقدمت قبلنا.

هنا يجدر الإشارة إلى أفكار وفلسفة أوقيست كونت التي تهدف بدورها إلى إعادة تنظيم المجتمع بأجزائه وعلاقاته المتداخلة وكانت مساهماته نقطة تحول في تاريخ الفكر السوسيولوجي. رأى أوقيست كونت العصر الذي يعيش فيه فوضى فكرية لهذا رأى إن إصلاح الفكر هو أهم عمل يمكن القيام به وذلك بتوحيد العقول وأنماط التفكير بواسطة العلم وذلك يكون بواسطة وضع مذهب علمي شامل يقوم على مبادئ واقعية. وقد أسس مذهبه على دراسة لتطور العقل البشري عبر التاريخ وصاغ قانون الحالات الثلاث. وربط فلسفته بالحياة فإصلاح المجتمع لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أصلحت الأخلاق والأخلاق لا تستقيم إلا إذا تحقق الاتفاق بين العقول.

ولقد شكل هدف كونت الأسمى هو إصلاح المجتمع ليعيش الناس في توافق وانسجام، ومذهبه عرض في كتابه: *محاضرات في الفلسفة الوضعية*، (1830-1842) وفيه يبين المراحل الثلاث التي اجتازها الفكر في تطوره. وبهكذا شكل لكل مرحلة تطور مادي مماثل، ففي المرحلة اللاهوتية تسود الحياة العسكرية وفي المرحلة الميتافيزيقية تسود الأشكال القانونية أما المرحلة الوضعية فهي مرحلة المجتمع الصناعي، وهكذا يتمسك كونت بأن التطور التاريخي يكشف عن حركة متوافقة للأفكار والمؤسسات. لقد كرس أعماله للدعوة إلى العلم أكثر من اهتمامه بموضوع العلم وبحيث كان ينظر إلى العلوم على أنها أما عملية تطبيقية أو نظرية أو أنها علوم وضعيه ملموسة و أخرى مجردة حيث تهتم الأولى

بالظواهر الملموسة وتعالجها بينما الثانية تتشغل باكتشاف القوانين الطبيعية التي تحكم هذه الظواهر وتحدد وجودها إذ تحتل الرياضيات قاعدة السلم لأنها تهتم بالجوانب المجردة لجميع الظواهر يليها الترتيب الميكانيكا والتي خلط كونت Comte بينها وبين الفلك ثم الفيزياء و الكيمياء فالبيولوجيا وفوق كل ذلك يكون علم الاجتماع أو الفيزياء الاجتماعية.

حيث اعتقد أن كل أنماط الحياة الإنسانية لجميع الشعوب في كل البقاع مرت من خلال نفس المراحل التاريخية المتميزة وبهذا، إذا أمكن للشخص أن يدرك مراحل هذا التطور، فيمكن له أن "يصف العلاج للأمراض الاجتماعية". فقد كان من وجهة نظره أن الفوضى التي يعيش فيها المجتمع ليست راجعة فقط إلى أسباب سياسية بل هي كذلك راجعة إلى أسباب عقلية أو إلى طرق التفكير فالمجتمع لكي يستمر ويتقدم هو حاجة إلى انسجام في المصالح المادية والمنافع المتبادلة فحسب بل في حاجة كذلك إلى اتفاق عقلي. لهذا كان لا بد من ظهور علم يعالج الفوضى وتنطبق عليه هذه الشروط وهو ما أسماه "بالفيزياء الاجتماعية". وقد قسمه كونت هذا العلم إلى قسمين، وهذان القسمين يصوران البناء التنظيمي لهذا المجتمع، "فالاستاتيكا الاجتماعية" تحتوي الطبيعة الاجتماعية ( الدين والفن والأسرة والملكية والتنظيم الاجتماعي (والطبيعة البشرية (الغرائز والعواطف والعقل والذكاء) بينما تحتوي "الديناميكا الاجتماعية" قوانين التغير الاجتماعي والعوامل المرتبطة به ( طريقة الحياة ونمو السكان ومستوى التطور الاجتماعي والفكري).

بهكذا يمكن اقتراح بدائل أو قواعد مأخوذة من كتاب Jean Duvignaud مقدمة في علم الاجتماع أهمها ضرورة وضع إحدائية repère مستمدة من الحياة الاجتماعية كأساس للاستنباط وعمليات سبر الآراء ثم ضرورة وضع جهاز مفاهيمي يتلاءم مع تعدد خاصيات الواقع الاجتماعي انطلاقاً من الواقع و خلق علم اجتماع متحرر من كل هيمنة أو إيديولوجيا.<sup>6</sup>

يبدو واضحاً كوننا "ال-نحن" شعب ميت وليس شعب نائم لذلك لن تصحو البلاد ما لم يصحو متفقيها.لسنا في الطريق إلى الهاوية إننا نقيم فيها في الدول العربية: «مما يشهد على عمق النظام العربي والسياسي والإيديولوجي والفكري قبل كل شيء والمحصلة لذلك هي شعوب ميتة سياسياً، مجتمعات كسولة، لا تقرأ أرادات لم تنجح في صوغ نماذج تنموية، هويات ثقافية، تولد العجز أكثر مما تصنع المعجزة».<sup>7</sup>

إن ابرز ما يحرك مسألتنا لهذا الغرض هو في الحقيقة أن نتعقب الفحص عن فكر يسعى للانعتاق من واقعه المأزوم استناداً على مفهوم "العقل" من أجل تبرير مسلمات واقع التسليم بها مسبقاً: فخطاب العقل هو خطاب كوني، حقيقة مطلقة، وهو ليس خاص بدين أو مجموعة أو بأي علم هو عام للإنسانية. والهدف هو إضفاء قيمة عملية جوهرية على وضعية الإنسان في المجتمع من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية. فهو صاحب الإرادة الحرة، والفاعلة في المجتمع والسياسة والاقتصاد، بل وفي مسار التاريخ.

كانت غاية علماء الاجتماع واحدة، ودعوة واحدة، من أجل تبنى أفكار تحرير الشعوب العربية من الاستعمار، وتحرير العقول من الجهل والخرافات على ضوء ثقافة المجتمع العربي الإسلامي. من ثمة

كانت نزعتهم التنويرية مقترنا بدعوتهم إلى إصلاح العقيدة وبناء إنسان جديد باتخاذ التعليم وسيلة لتحقيق ذلك.

إن كان مطلب علم الاجتماع مطلباً متأصلاً في الإنسان، وكان الإنسان هو الذي يعنيه هذا العلم من جهة كونه المقصود بهذا المطلب والقاصد إليه، واللافت للنظر إن الكائن الإنساني يجد في ذاته مصدر تفكيره الفلسفي وإن علم الاجتماع ينبثق من المصدر الأصلي لنا ومن معاشته لتجارب قصوى ووضعايات عبثية، ويسمح للوجود الإنساني باجتياز سجن الأحكام المسبقة ويصبح الباحث في علم الاجتماع هو الإنسان المتأمل الذي يثير القلق في صميم طمأنينة العالم ويتطلع إلى الوجود بأسره ويستوعب الأزمنة كلها.

ولأن السوسيولوجيا مرتبطة بتفكير الإنسان والاستغناء عنها يعني الاستغناء عن التفكير وهذا لا يصح، لأن السوسيولوجيا تفكير بالأساس. بهذا فإن هذا العلم كتفكير كثيراً ما ساهم في تغيير أوضاع الإنسان لأن فعل التفكير هو الذي يحرك النشاط الفكري عند الإنسان ليتناول بالدرس والتحليل كل المفاهيم كالتاريخ، المعنى، المعرفة، الأخلاق...

لاشك من أهمية مسألة علم الاجتماع ودراساتها فقد كانت قلق الإنسان و محط تفكيره وتأملاته، وهكذا شكل فإنه يجدر القول، بأن علم الاجتماع يسعى إلى تحرير الإنسان من مكبلاته وتوسيع قدرته ومجال فعله لكن توسيع المجال والقدرة والفعل تهدده دائما منزلقات العنف و اللامعنى شأن ما تهدد الحرية إمساخات الأناية. ومن ثمة، ألسنا بحاجة إلى مراجعة نقدية؟ كما يقول نيتشه. ألم يحن الوقت لنفكر، لأن هذا التفكير من شأنه أن يجعلنا نحتمل بالحياة؟

إن الإنسان حيوان ينشئ القيم ويعيش طبقاً لها، فوجود الإنسان ليس وجوداً بيولوجياً خالصاً بل هو وجود يتحقق طبقاً لقيم الإنسان ليس مهتداً في وجوده البيولوجي بقدر ما هو مهتد في وجوده الإنساني إبي القيمي والتقافي.

إجمالاً، مهما كان من أهمية هذا العمل فإن من المؤكد أنه مجرد استمرار لحرص يقتضي رصد دواعي إلتباسه. لكن هذا المبحث أليس قريب منا وإن كان أتى من بعيد... هو مبحث يسأل الكيان، اللسان والعقل بل هو انصهار كلي بما في واقعنا من ترددي للوضع الاجتماعي بالبلاد العربية في وقتها الراهن ألا نحتاج لمثل هذه العلوم علنا نحسن تغيير حالنا؟

## الهوامش

<sup>1</sup> أحمد زكي بدوي: معجم المصطلحات الاجتماعية، مكتبة لبنان، 1982، ص4

<sup>2</sup> عبدا لرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل بيروت، 38، 1/.

<sup>3</sup> صحيفة "الأمة"، تونس، العدد 32، 25 جوان 1922.

<sup>4</sup> علي حرب، الإنسان الانئي/ أمراض الدين واعطال الحداثة، المؤسسة العربية للدراسات العربية والنشر 2010، ص 175

<sup>5</sup> أميل دوركهايم صاحب كتاب المنهج في علم الاجتماع *Les règles de la méthode sociologique* (تهتم هذه المدرسة على علاقات البنية فوقية في المجتمع)

<sup>6</sup> Jean Duvignaud, *Introduction à la sociologie*, Gallimard, 1966, p 110-114

<sup>7</sup> علي حرب، الإنسان الانئي/ أمراض الدين واعطال الحداثة، المؤسسة العربية للدراسات العربية والنشر 2010

ص179،